

حقوق الفلسطينيين سياسية

زيد منى*

يطيب للبعض، من غير القابلين للتعلم، لا من هزائمهم التاريخية ولا من هزائم حلفائهم، الذين كانوا أتباعاً ذليلاً لهم، لا أكثر، ولا الأخذ من التاريخ عبر، استخدام الفلسطينيين مكسر عصى لكل تقصيراتهم وشوفينيتهم التي تصل أحياناً إلى مستوى الفاشية. فالبعض يرى الفلسطينيين في هذا البلد أو ذاك قوة مذهبية يمكن أن تقف إلى جانبه في صراعه مع شقيقه في الوطن، الذي بات عدواً يجب هزيمته عسكرياً، وآخر يستخدمها فزاعة يتملق بها صاحب الجلالة ونظامه المتصهين منذ الولادة... وهكذا.

الحقيقة التي يجب أن يدركها الجميع، شاؤوا أو أبوا، أن الفلسطينيين في أمكنة وجودهم، وبالدرجة الأولى في شرق الأردن (الأصح: عبر الأردن) مواطنون لهم الحق القانوني في التمتع بكل حقوق المواطنة في تلك الدولة (إن كان لأي كان، عند حكامها، أي حقوق أصلاً). حقوقهم ليست إنسانية، وإنما سياسية بالدرجة الأولى. ومن يدعي أن لهم حقوقاً إنسانية فإنه يجعل منهم، وعن قصد، تجمع بشري لا هوية له، وجب النظر إلى حاجاته الإنسانية من مسكن وماوى وما إلى ذلك، وربما وجب تشكيل منظمات خاصة للرفق بهم، على غرار منظمات الرفق بالحيوان أو منظمات حماية البيئة... إلخ. الحقوق الإنسانية تصح، من منظور قانوني، فقط في حالة اللاجئ، أما عندما يحمل شخص ما تبعية دولة ما ودفتر عائلة وجواز سفر مسجل عليه إنه مواطن وفق القانون الأساس، فإن محاولة إبعاده عن الحياة السياسية في تلك الدولة ممارسة شوفينية عنصرية بهيمية. لقد مارس نظام عمان سياسة التفرقة بين مكونات سكان الدولة الأردنية، الكرتونية الكاريكاتورية أصلاً، وحاول إجبار أكثر من ثلاثة أرباع سكانها على نكران أصلهم الفلسطيني، وهنا نتكلم عن الهوية الفلسطينية بصفتها انتماءً فضالياً في المقام الأول، لكننا نعني الانتماء الجغرافي أيضاً، لصالح الاعتراف بشروط المؤامرة التي حاكها، هو وعرب سايكس/ بيكو، مع العدو الصهيوني، بهدف تقاسم فلسطين عام 1948 بينهما.

إن نضال القوى الوطنية في الأردن مهم، ونحن نعرف الشروط الصعبة التي يعيشها أي نضال صدوق في نظام عشيري رجعي متخلف كنظام عمان المرتبط ارتباطاً عضوياً بالمشروع الصهيوني، أي نظام وظيفي ليس غير. لكن الظروف الصعبة والابتزاز الدائم لنظام عمان

لكل نضال وطني تحرري تقدمي لا يعني تسويغ اندفاع البعض إلى ممالآته ومناقفته بتصويب فوهة البندقية الفكرية، مهما كانت مبتذلة وسخيفة تحت شعارات عفا عليها الزمن، تجاه الشعب الفلسطيني في الأردن والتحريض عليه، تحت مختلف الادعاءات. نضال القوى الوطنية/ القومية في الأردن يجب أن ينصب على مواجهة نظام ذوي عون المتصهين الذي، وكما كتبنا من قبل، لم يتوقف ولو لطرفة عين، عن خدمة المشروع الإمبريالي _ الصهيوني في أوطاننا، وتصويب البعض منظار البندقية بعيداً عن نظام عمان الصهيوني يعكس جنباً وهروراً من المعركة الرئيسية ضد الإمبريالية الأميركية والرجعية العربية.

فقط عندما تتوقف تلك القوى عن تصويب سهامها إلى صدور أبناء شعبنا في الأردن والتحريض ضد أي مشاركة له في النضال الوطني من أجل استبدال نظام وطني تقدمي عروبي القلب والقالب بنظام عمان المتخلف المتلف لخدمة صهيون، نصدق أنها تسعى إلى تحقيق ما ترعفه من شعارات قومية، مهما كانت متواضعة. عدا ذلك، فإن تصويب السهام على أبناء شعبنا الفلسطيني في شرق الأردن لن يؤدي إلا إلى انفجار تسيل فيه دماؤه أنهاراً، خدمة للعدو الإمبريالي _ الصهيوني وعليها تحمل المسؤولية الكاملة عن أي قطرة دم فلسطينية تسال هناك.

وفقط عندما تتوقف تلك الحملات ضد شعبنا والاعتراف بحقوقه الكاملة بصفته يتمنع بالمواطنة الكاملة، يمكننا أن نصدق ما يرفع من شعارات.

فالتحريض المستمر على الفلسطينيين في شرق الأردن ما هو إلا دعوة لتجريدهم من حقوق المواطنة وتحويلهم إلى مواطنين أمن الدرجة الثالثة، التي فرضها نظام عمان عليهم بالتعاون مع الإمبريالية العالمية بهدف تذيب هويتهم، وبالتالي إفساح المجال أمام وصول المشروع الصهيوني في فلسطين والمشرق العربي إلى غاياته العدوانية والعنصرية. عدا ذلك، فمن غير الممكن النظر إلى السياسات الممالآة والنفاق الرخيص لقوى تدعي الوطنية والقومية إلا كونها دليلاً على شوفينية وعصبية مبتذلة لبداءة لا يعرفون حياة غير الغزو والنهب والقتل، تعكس معاناة أصحابها عقدة نقص تجاه كل ما هو فلسطيني، حتى لو كان المقصود بالتعريف هوية نضالية وليس جغرافية، وهذا ما نؤكد دوماً ونتمسك به.

* كاتب عربي

البعض يرى الفلسطينيين قوة مذهبية يمكن أن تقف إلى جانبه في صراعه (مروان ططح)



■ نائب رئيس التحرير: بيار ابي صعب ■ مدير التحرير: إيلي شلموب، وفيف قاصوه ■ إقتصاد: محمد زبيب ■ محليات: حسن عليف ■ مجتمع: مهم زراقت ■ ثقافة وناس: امل الاندري

■ رئيس مجلس الإدارة: ابراهيم الامين ■ الإدارة المالية: فادي خليك ■ الموارد البشرية: ربحا اسماعيل

■ المكاتب: بيروت - فردان - شام دونان - سنتر كوندورد - الطابق السادس ■ تليفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 5963/113 ■ www.al-akhbar.com

■ الإعلانات Tree Ad 01/61115 03/252224 ■ التوزيع شركة الالهالك 01/666314-15 03/828381

الخبير

تأسست عام 1953
تصدرت شركة «الخبير بيروت»

رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2006-2007)

مستشار مجلس التحرير
انسى الحاج

رئيس التحرير: المدير المسؤول
إبراهيم الامين

إلى سيادة المتروبوليت ج

املح ديبو*

«أبق معنا يا سيّد فقد مال النهار» (إنجيل لوقا)

في أنطاكية ضجة تلو الضجة. أهذا أوان الغضب؟ أين أخطأنا لنصبح برج بابل، والعاصف يعبث بالسفينة؟ بمن نستجير؟ فإذا فسد الملح بماذا يملح؟

أمام هول المشهد، يصرخ الجرح، وينزف الكلم، تتدفق العبارات من الأعماق إلى ضفاف البوح، وما يطفو على الصفحة زيد، تمتمات متلعثمة، يصفعا بهتانها إزاء ما يضطرم في القلب ويلهب العقل ويحرق الأنفاس. «هات يدك وشذنا في العثار»، بهذا الكلام كنت تناجي المصلوب ويدها مبسوطتان ومسمرتان. هكذا صنع الله خلاصاً للعالم، للذين قبلوه من خاصته.

«من البطن قبل كوكب الصبح ولدتُ»، هذا القول الكتابي، صدقته الوالدة لما روت حادثة تغلبك على الموت وأنت بعد بالاقمطة. النور الذي قبل كوكب الصبح انتشك من جرن المعمودية، سكن فيك مستتراً بنشكك بالحكمة متكئاً على صدر المعلم إلى أن بلغت الثامنة عشرة، فنطقت كاشفاً أن الله عشق حارق وهو الصانع خدامه لهيب نار، وبخوره كلنا اهتدينا.

فضل أسياذ المجمع آنذاك أنهم أصغوا إلى شاب لم يكن متجلبياً إلا بماء المعمودية وممسوحاً بالمبيرون فقط كهوناً ملوكياً، ولم يكن على أي رتبة مرتبة بواسطة أياد بشرية. فضلمهم على الكنيسة أنهم أصغوا إلى الروح ينفخ في شباب التهبوا عشقاً، فهماً، ومحبةً وهؤلاء كانوا علمانيين أي من العالم، وقد أداروا الحافظهم إلى فوق. فضل آباء المجمع آنذاك أنهم أصغوا إلى الروح القدس ومنه نعمة التمييز والتواضع. ففهموا أنكم ماضون إلى العالم لتفعلوا فيه خلاصاً من القوالب الجامدة، من القوانين المكبلة، من الرتبة الإنشائية، والترداد النثري ولغة الخشبية.

كنتم شباباً نزع الله منكم القلب الحجري وأعطاكم قلباً من لحم ودم وتغذيتكم بدم المصلوب حباً فسرى في عروقكم ونفخ في أفواهمكم.

تميزت عن ربيعك بنفحة خاصة، هي المفارقة الكبرى في حياتك، وكل مفارقة مأساة لأنها تضاد وانشطار وتمزق مستمر بين قطبين. لم ينح من هذه المأساة سوى مريم، إذ نمدحها قائلين: «يا جامعة الأضداد إلى واحد»، وخضع المسيح بالجسد لهذه المأساة حين مُرّق جسده على الصليب. كان لا بد له من أن يستسلم للموت، ليكون شريكاً تاماً لنا في لعنة الخطيئة التي حملها عننا، ليلفنا معه جميعاً بالأكفان التي سربلت جسده المائت، قبل أن يرتفع بالنور الذي فيه الی فوق ويرفع معه من شاء منا.

بهزك النور الذي فيه، وعلقت عيناك بالسماء واستنطبت المقام، وسمعت هناك «كلمات لا يسوغ النطق بها». لكنك لم تنح من مأساة التجسد لأنك ساكن جسداً، هي المفارقة الكبرى: عيناك أبداً إلى فوق من حيث يأتي الخلاص، قابض على سزه، عنيد في الحفاظ عليه، فيما أنت مكلف باهل الأرض. لجأت إلى الكتب وكانت وحدها صحبتك طويلاً، إلى أن أدركت «أن الآخر أساسي حتى التنفّس». (لو حكيت مسرى الطفولة). هكذا دخلت في سرّ التجسد الذي نحن نعيش موسمه الآن وفهمت أن اللغة هي الجسر الذي يربطنا بالسماء، بالإنبياء، بالكتب التي عبّر الله عن ذاته فيها. ولكن العبارات كلها بقيت ناقصة مشوهة، إذ يفهمها البشر بمحدوديتهم، يتلاعب بها المفسرون انطلاقاً من مآربهم ومن أغراضهم. فكان لا بدّ لله من أن يكشف ذاته بالكلمة دحضاً لكل خطأ «فصار الكلمة جسداً وحلّ بيننا وراينا مجده مجد وحيد»، (إنجيل يوحنا).

صار الله إنساناً مثلنا لكي نفهم. ترجمة الحب أن يأتي الحبيب الی الحبيب. كل منا يرى بحسب كثافة آناه، لكل منا في أعماقه، في سرّ علاقته مع الأبدى صورة لإلهه. ميّزك أنت، إذ أعطاك أن تسمرّ الحاظك الی فوق، فكانت غربتك في الأرض صليبيك.

عشتُ غربياً، تضرب في الأرض بحثاً عن آثار أقدام المعلم، غربياً زادك الكلمة. فأكلت الكتاب، وألهبت بنوره كعاشق كصاب بدوار لا يهدأ. وكالمصوفة العشاق، أحببته حباً شغلت به عن سواه وأحبك هو فكشف لك الحجب حتى تراه. موهبة الرؤيا الحق أنطقك بالحرية التي وهبك الله «تعرفون الحق والحق يحزركم»، أخلصت لها وكانت مكتظة محتدمة. في شبابك فهمنا منها ما استطعنا، فهمنا الكثير، وغاب

عننا الأكثر. شاعر مهووس بإله هو محبة (وتشدد أنها ليست من صفاته، بل هي ذاته). لأن إخلاصك كان أبداً الی فوق، صعب علينا نحن الجالسين في ظلمات الدهر أن نستوعب ما تكتب. أعجبنا، استلذذنا، صفقنا، تحمّسنا، كل منا أخذ ما استطاع منها. وجهد الكثيرون في السير على خطاك. شبّه لهم، كزرك، قلدوك، سقطوا من حيث أنهم ظنّوا أن السرّ هو في الكتابة. أنت لست كاتباً، أنت حالة شعرية في ليل الإبداع يستسلم لله فيملي عليك بغفلة من أناك، ليأتي إلينا بواسطتك وقد غدوت ابن أمته. المفارقة الكبرى هي أنك ما زلت تقول صادقاً بأنك طفل من حارة النصارى، ولئن غدوت على فتوتك، كاشف مجد أنطاكية العظمى وعشير آبائها تعرف نبض أقوالهم وتضبط إيقاعه. دخلت سرهم ومنه عدت إلينا بلغة فتحت مسالك الفهم العربي إلى قلب الله.

أذهلك الشعر واختطفت به إلى رؤية الجمال الإلهي وأنت عاجز عن أن تحل سير حدائك، أن تعتنى بأشياك الصغرى أن ترتب كتبك، أن تنظم أوراقك، أن تراجع حساباتك... ما كان هفك في الأرض إلا البحث عن آثار الجمال الذي تحسبه انعكاس الوهج الإلهي وفيه الخير والحق. لاحقت الوهج الإلهي في كل شيء، في كل وجه، فإذا ظفرت به في أي أمر مادي، كنت تنظرف به، تحمله إلى مكان قصي لتحتفل به دون ما يشوبه من أعراض مادية وظرف واقعية وحدود. تنتقبه وحده وتعرض عن كل شيء سواه، كما يفعل الجراح حين يغطي سائر الجسد ليركّز على الجرح الذي هو موضع اهتمامه وعملته.

هي هنا مفارقة كبرى. لقد ظفرت بالنصيب الذي لا ينزع منك وظفرت بالسرّ الإلهي. لكن أشياء الدنيا غابت عنك وما كنت لتحسبها شيئاً مهماً. نطقت، يا سيّد المناير وكتبت يا صاحب القلم، الأهمت، ألهمت، واصطدت صيداً جمّاً فذريتك لا تعدّ ولا تحصى. إلى كل الأرض خرج صوتك، ميزتك أنك «كشفت لنا عشق المسيح وجزيتنا فيه» (أ. د. فصرنا بشراً جُددنا، وما كانت اللغة إلا الحجاب الذي دعوتنا لإسقاطه. قلت في عظة لك «أسلكوا في دنياكم بحيث إنه إذا أخفى كتاب الإنجيل عن وجه الأرض يستطيع الناس أن يقرأوه على وجوهكم».

إلا أنك ضللت على جسد الدنيا. لم تخترقه، لم تعرفه، لم تعتبره شيئاً مهماً. وهنا مفارقة أخرى، إذ أسلم إليك جبل لبنان من حيث نادى الله عروسه، وأحسب أنك ما رأيت من هذا التكليف سوى شهوتك أن تجيب العروش هذه عريس الكنيسة بأحسن جواب. أسفت والدي، التي كانت تعظّمك جداً، لهذا التكليف، قالت: «مسكين كم سيتعذب في هذه البقعة من الأرض، فإنه كان الأولى بهم أن يجعلوه سفير أنطاكية الی العالم».

حملت صليبك ومشيت مخاطباً البشر بالكلمة، بالمعرفة كما كان دأبك فيما كنت مبشراً تمشح البلادة والجهل والتراخي «وتلقي ناراً» تحرق العتاقة. وانطلقت من قناعة أن الإدارة محبة وثقة. وذهبت فيها كل مذهب وما كان يوماً البصر عندك أفعال من البصيرة ولا الفعل أبقى من النوايا _ فأسلمت لمن حولك راجياً إخلاصهم ومرحّباً لله محاسبتهم. وحسبت أنه على قدر الثقة تأتي العزائم.

هي المأساة التي صلبتك منذ سنين، غريب في الأرض. شاعر لا يعرف نفعاً للكلمات سوى أنها جسر الی الله، ولا يظن في الناس إلا خيراً.

ما قال الأقدمون إن الشعراء أسياذ على الممالك الأرضية، قالوا بالفلاسفة، لأن الشعراء يهبطون إلينا من فوق ويمكثون في الهنا والهناك. غربتك هذه كانت موضع ذهول واستغراب وتعجب، تذكر بغربة «الأمير الصغير» (للكاتب الفرنسي أنطوان دو سانت إيكزوبيري) الهابط من كوكب آخر الی الأرض. هذا بات طيلة إقامته بيننا يندهل من غرابية تصرفات البالغين، لم يكن له قبل بمكرهم. المخطوفون إلى فوق إذا جيء بهم الی أسفل ضلّوا. وحسبت أن الله يعينك في حمل صليبك. لكن الله الذي فيك، لم يستطع أن يحزك بالقدر ذاته من أحاطوا بك. فترجموك وفسروك وقلدوك ونسخوك ونصحوك والتفوا حولك كظفل المغارة لتستدفي بأنفاسهم من برد الدنيا. ولكنك مكثت غربياً.

والآن قد اشتدّت غربتك تبدو أكثر توهجاً وأكثر وداعة. هي فيك من حجل ورقة وخفر. بتّ تنظر إلينا بلطف وكانك ساكن عالماً آخر يمنحك سلاماً عميقاً وحباً عميقاً. وتعلمنا شيئاً آخر هو أنه إذا المرء صغفت قواه الجسدية من دون اعتلال وأمدّه الله بالعمر والرضى، شغت روحه واحتلت كيانه بأسره.